الوضع الحقيقي لمشكلة

جابر بن حيان

للأستاذ أحمد زكي صالح

الباعث على نشوء مشكلة جابر

نحن الآن أمام شخصية فذة ، ذلك لأن «جابراً» هو شخصية العلم ، لا في العصور الوسطى الإسلامية فقط ، ولكنه شخصية العلم في القرون الوسطى الأوربية .

ومنذ عام ١٩٢٢ ، احتلّت مشكلة جابر بن حيان المصدر والمكانة الأولى بين أهم المسائل التي عالجها العلماء المستشرقون في أوربا بوجه عام وفي ألمانيا بنوع خاص

ويمكن أن نقول : إن من أهم الأسباب لنشوء مشكلة جابر بن حيان وجود عدد معين من الكتب الكيميائية اللاتينية التي ينسب أصل تأليفها العربي لجابر بن حيان العربي المسلم

وهذه الكتب تعرف في الأدب اللاتيني الكيميائي بالأسماء الآتية :

1. Summa Perfectionis Magesetri
2. De Investigatione Perfectionis
3. De Investigatione Ueritatis
4. Liber fornacum (١)

ولعل أهم باعث على الشك في صحة نسبة هذه الكتب لجابر بن حيان ، هو هذه اللغة الواضحة ، وذلك الأسلوب الجميل ، وهذا العرض المنسجم للعلي ، وغير ذلك من ظواهر الوضوح الفكري التي كتبت بها هذه الكتب . ذلك في حين أن التراجم اللاتينية لبعض المؤلفات العربية الأخرى كانت في لاتينية مضطربة وأسلوب مشوه قبيح ، ولهذا السبب خُيّل لبعض العلماء المستشرقين غموض أصل هذه التراجم وأنها مدخولة على جابر بن حيان

ولكي نعرض المشكلة عرضاً حسناً ، ونضعها في وضعها الصحيح يجب أن نعرضها على شكل أسئلة نحاول أن نجاوب عليها ، فإذا استطعنا ذلك سهل علينا إصدار الحكم الصحيح في هذه المشكلة ، فنتساءل :

أولاً : هل يمكن أن تكون الكتب الكيميائية التي عرفت في الأدب الكيميائي في القرون الوسطى تحت اسم Gèbèr من أصل أوربي ؟

ثانياً : إذا لم تكن هذه الكتب من أصل لاتيني فهل يمكن أن تكون ذات أصل عربي ؟

ثالثاً : هل حقاً أن هذه الكتب كتبها جابر بن حيان العربي المسلم ؟

رابعاً : إذا كان كذلك ، فمن هو جابر إذن ؟

ولكن في عرضنا للمشكلة ، لن نعرض لها جزءاً جزءاً ، ولكن سنعرضها ككل ، وبعد ذلك نناقش ما وصلنا إليه من نتائج

شخصية جابر بن حيان

جابر بن حيان من تلك الشخصيات التي عاشت في صدر الإسلام ، وكلنا يعرف أن أهم ميزة يمتاز بها رجال هذا العصر هي العقلية الجامعة العامة ، وأعني بها تلك التي يطلق عليها Mentalité encyclopidique ، وجابر خير من كان يمثل هذه العقلية ، إذ أنه جمع بين العلم والأدب ، وكان فيلسوفاً ومتكلماً شيعياً ، وكيميائياً ، ومنطقياً ، وإماماً للشيعة ، وطبيباً ، وإذا عرفنا شيئاً عما يذكره (الفهرست) من مؤلفاته أمكننا أن نتصور على أي شكل وصورة كانت عقلية جابر

فنحن نجد في (الفهرست) إلى جانب ما يذكره له من كتب الكيمياء وهي حوالي ٢٥٠ كتاباً ، نجد كذلك ٣٠٠ كتاب في الفلسفة و ٥٠٠ في الرد على الفلاسفة ، و ١٣٠٠ في العلوم الآلية والحيل ومثيلها في عدد الحروب ، و ٥٠٠ ونيفاً في الطب ، وعدداً كبيراً من الكتب في علوم التنجيم والفلك والسحر والتعويذ والعلم الإلهي

(١) الأصل العربي لهذه الكتب مفقود ، ومن بحثنا خلال مؤلفات جابر بن حيان التي أوردها الفهرست نستطيع أن نقول إن أصلها العربي يعرف بالأسماء الآتية على التتابع : الجمع ، الاستتمام ، الاستيفاء ، كتاب التكليس .

ونحن لا نذهب إلى القول بصحة ما جاء فى هـذا الثبت ، فقد يكون ابن النديم قد فهم (الرسالة) على أنها كتاب أو أراد التهويل ، ولكن الذى يعنينا هنا أن ابن النديم يريد أن يصور لنا عقلية جابر بن حيان على أنها عقلية جبارة

أصول الترجمة اللاتينية لمؤلفات جابر

ليس من شك فى أن اتحاد شخصية Gèbèr التى يقول بعض المؤرخين إنها الشخصية اللاتينية المؤلفة للكتب السابق ذكرها مع شخصية جابر بن حيان — يكون عديم القيمة إذا كانت نسبة المؤلفات اللاتينية لجابر محض انتحال ، وفى نفس الوقت تقدم البرهنة على ذلك مفتاحاً لمصادر هـذه المؤلفات . وفى اختبارنا إياها كى نرى هل هناك احتمال يمكن أن يدل على أصلها العربى يتحتم علينا أن ندرس الكتب العربية لجابر بن حيان التى وصلت إلى أوربا ؛ ولكن الأهم من هذا كله هو أن ندرس محتويات هذه الكتب الأربعة التى سبق أن أشرنا إليها

فكتاب «الجمع» Summa Perfectionis Magestri الذى يعد بحق أعظم وأهم مؤلفات جابر كلها ، قسم إلى كتابين : الكتاب الأول مقسم إلى أربعة أبواب ؛ والثانى إلى ثلاثة :

فأما الباب الأول من الكتاب الأول فإن المؤلف يعالج فيه الصعوبات التى يقابلها الكيميائى فى تحضير الأكسير . وفى الباب الثانى يدحض جابر براهين وأقوال أعداء الصنعة وخصومها . واختص الباب الثالث بمناقشة خصائص عناصر الكبريت والزرنيخ والزئبق التى منها تتكون المعادن فى نظر جابر بن حيان . ويبين فى الباب الرابع الكيفيات التى بها تعالج المعادن والكحول والتبر ووصف التجارب الخاصة بكل معدن ؛ ثم تحدث بعد ذلك عن العناصر الهامة والأجهزة اللازمة لكل تجربة

وفى الباب الأول من الكتاب الثانى عالج تحضير الكحول وبعض المعادن ، ثم فى الباب الثانى ذكر عدداً من الوصفات الطبية لا بأس بها ، وفى الباب الثالث ذكر بعض التجارب التى لا تحتاج إلى شرح طويل

وسنقتصر هنا على ملخص هذا الكتاب لأهميته ولإحرازه قصب السبق على الثلاثة الآخرين ، إذ أن هذا الكتاب أخذ منزلة إنجيل الكيمياء فى العصور الوسطى فضلاً عن أنه نشر مرات باللاتينية منذ العصور الوسطى حتى الآن

مناقشة آراء المستشرقين فى جابر ومؤلفاته

ولقد عز على بعض المستشرقين أن يوجد مثل هذا المفكر الجليل الشأن فى الشرق خاصة وفى الإسلام عامة ؛ فأخذوا يبتدعون أساليب الشك ، ويحاولون بمعاول الهدم أن ينالوا من جابر بن حيان ، ولكن هل قُدر لهم النجاح فيما أرادوا ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه !

وضرورى جداً ، لمن كان فى سبيل بحث كبحثنا هذا ، أن يؤرخ تأريخاً بسيطاً لحركة الاستشراق العلمى

كانت دراسة المستشرقين للناحية العلمية فى العالم الإسلامى عديمة القيمة فى القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر ؛ ولكن منذ خمس وعشرين سنة ظهرت حركة جديدة فى محيط الاستشراق لتبين أصول العلم العربى الذى يوجد بين طيات تلك المخطوطات العربية العديدة الموجودة فى دور الكتب الشرقية والغربية ، والتى يرجع الفضل فى نشر بعضها إلى : برجستراسر وبراون وتكانش وسوتر ومسبيرو

وهناك مدارس كثيرة من تلك التى اختصت بالكيمياء والطب والفلك والرياضة والطبيعة والفلسفة سبقت نفسها فى نفس الوقت بصبغة استشراقية ، نذكر من هؤلاء : رسكا وودمان وستشو وكروس وبلسنر وسرطون وريتو وغيرهم

تقرير الأستاذ شميدر Chr. Schmieder (١)

الأستاذ شميدر له صولة وجولة فى تاريخ الكيمياء ، وبطبيعة الحال اتصل بحثه بمشكلة جابر بن حيان ومؤلفاته ، ونحن نقتطف بعض عبارات مما كتبه :

قال : إن أشهر الكتاب العرب الذين عالجوا الصنعة (أى الكيمياء) هو جابر بن حيان الذى عاش حسب تقدير ليوافريكانس Leo Africanus فى القرن الثانى الهجرى ، ويمكن أن يقال بالدقة فى النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد . وليس ثمة عربى قبل جابر استطاع أن يكتب مثل ما كتب جابر . وليس ثمة عربى بعده استطاع أن يصل إلى مثل ما وصل إليه

(١) ذكره رسكا فى مقاله فى Jolamic iu lture 1937

جابر ، الأمر الذى ترتب عليه أن أطلق على جابر بن حيان فى التراجم اللاتينية اسم (ملك العرب) ، وإنه ليظهر لى غريباً وبعيد الاحتمال أن أولى محاولات التأليف فى موضوع معين فى شعب من الشعوب قد تبلغ هذه المرتبة من الناحية العلمية ، ولكن المشكلة زال ما كان يعتريها من غموض بفضل استكشاف ليوافريكانس الذى ذهب إلى القول بأن جابر لا يمت إلى العرب بصلة ، وإنما هو منحدر من سلالة إغريقية . فلقد عاش جابر فى إشبيلية Seville بأسبانيا حيث ألم بكل فروع الفلسفة اليونانية المربية ، وربما يكون جابر هذا هو الذي أنشأ الجامعة العربية هناك ، أو على الأقل يمكن أن يعتبر مؤسس مدرسة فلسفية انتشر تلاميذها فى القارات الثلاث ، وأخذوا ينشرون العلم باسم جابر بن حيان. ولما كانت كل مؤلفات جابر بالعربية فإنه اكتسب لنفسه الجنسية العربية وكذلك اكتسبها لعلمه

ولكن إذا أنعمنا النظر فى هذا الرأى الذى يأخذ به الأستاذ شميدر وجدناه مليئاً بالأغلاط التاريخية ، وذلك أن جابراً لم يذهب إلى إشبيلية ، وما عاش بها قط ، إنما عاش متنقلاً فى بلاد المشرق بين الكوفة وبغداد ، وأن جميع كتب التاريخ العربية تثبت لنا ذلك بشكل قاطع ، هذا أولاً ، وثانياً : إذا كان صحيحاً ما يقول به شميدر من أن جابراً معتنق جديد للدين الإسلامى ، فما هو اسم جابر الأصلى ؟ ولمَ لَمْ تذكر فى كتب التاريخ هذه الحقيقة ؟ وهبنى سلمت بصحة مايقول به شميدر فكيف يمكن التوفيق بين ما يقول به وبين ما تقول به كتب التاريخ الصريحة من أن جابراً تولى إمامة الشيعة ، بعد موت جعفر الصادق ، وهم على ما هم عليه من تطرف وغلو شديدين فى الدين الإسلامى ؟

ولهذا كله لا يسعنا إلا أن نرفض ما يقول به الأستاذ شميدر

تقرير الأستاذ مايرهوف Max Meyerhaf[1]

يرى الأستاذ مايرهوف أن تلك الكتب التى تنسب لجابر هى فى ذاتها مشكلة ، إذ كيف يتيسر أن نفهم أن رجلاً عاش فى القرن الثامن وله كل هذا الاطلاع على الأدب اليونانى

(١) من مقال له فى pegacy of Islam

الكيميائى ؟ ولكن يظهر أن هذه المؤلفات من أعمال جمعية فى القرن العاشر من الميلاد أى القرن الرابع الهجرى شبيهة بتلك التى أطلقت على نفسها (إخوان الصفاء) . وأسماء المؤلفين اليونان هى التي تذكر فقط فى أعمال جابر الطبية ، ولكن النصوص بعيدة عن أصحاب هذه الأسماء جد البعد ، وتدل على روح مدرسية صريحة ، ففى حين أنه قليلاً ما يأتى ذكر الأعلام السريانية والهندية ، نجد كثيراً ما وردت الأعلام الفارسية ... وعلى أية حال فمن المشكوك فيه أن نعدها الحلقة الأخيرة من سلسلة تقدم علمى امتد من عصر ما قبل الإسلام إلى العصر الإسلامى

ولكن رأى مايرهوف لا يبدو أن يكون تقريراً ساذجاً ، فالأستاذ رسكا يقول : إن المسألة لا يمكن أن تفسر هذا التفسير البسيط الساذج من أن أعمال جابر بن حيان إنما هى أعمال مدرسة استمرت عدة قرون[1]

ولكن ، فلنتوسع قليلاً فى مناقشة ما يذهب إليه مايرهوف : فمايرهوف يبنى أساس برهانه على أنه لا يمكن لجابر أن تكون له هذه المعرفة الواسعة المدى بالكيمياء ، وهو الذى عاش فى القرن الثامن الميلاد ، ولكن أنسى الأستاذ مايرهوف وهو الفطن اللبيب الذى بحث فى الأصول التى استقى منها الإسلام العلم وبين بكل وضوح وجلاء أنه ما أتى القرن الثانى من هجرة الرسول ، أى القرن الثامن من الميلاد ، حتى كان لدى المسلمين معرفة حسنة بل جيدة بالعلوم ، وخاصة الطبيعية منها التى كانت لدى الفرس والسريان والهنود والمصريين واليونان[2]

ولكن يمكن أن نلتمس له عذراً إذا عرفنا أن المدة بين رأيه الأول ورأيه الثانى تقرب من ثمانى سنوات . فإذا كان مايرهوف سنة ١٩٣٧ يهدم الأساس الذى بنى عليه مايرهوف تقريره سنة ١٩٣٠ فلا يسعنا إلا أن نرفض النتيجة المترتبة على رأيه الأول ، وهى أن أعمال جابر من أعمال مدرسة امتدت حوالى ثلاثة قرون

(يتبع)

أحمد زكى صالح

(١) Ruska : Alchemy in Islam. Isl. cul. 1937

(٢) M. Meyerhaf : on the transmission of Greek & Indian Science to the Arabs